من يعلق الجرس فى رقبة القط ؟

بقلم

يحيى حقى

حضرت أخيرا ندوة فى نادى القصة تكلم فيها ـ اى خطب ـ نفر من الكتاب المعروفين وعدد من الادباء الناشئين ـ كانوا بطبيعة الحال أحد صوتا ـ عن اغفال الصحافة عامة والصحف اليومية بخاصة للأدب والنقد ، وعن اختفاء المجلات الأدبية ودلالته .

فكنا اشبه باجتماع الفيران لبحث مشكلة من يعلق منهم الجرس فى رقبة القط ، اذ كنت احب ان تعقد مثل هذه الندوة فى نقابة الصحفيين ، عند مربط

الفرس ، لاننى اضيق دائما بكل بحث موضوعى يتدهور بسرعة الى تبادل شكاوى الموجوعين وقد خلا بعضهم الى بعض ، وتشابه القول عند الجميع، ورحم الله ايام كشك الموسيقى فى حديقة الازبكية .

وانا اكتب هذا المقال وتحت يدى العدد الاخير من مجلة « المجلة » ، و « الادب » و « الشهر » – وقد عادت للظهور فالف مبروك – واخر عدد من « كتابى » وترجمته لقصة « هل تحبين براهمز » واصبحت سلسلةكتب للجميع تصدر فى صورة كتاب + مجلة (حمروش يدخل علم الحساب فى فن الادب) وصحيفة الجمهورية تفسح صدرها اكثر فاكثر للادب والنقد ، وصحيفة «المساء» ماضية فى الاحتفاء بهما ، ومجلات وصحف دار اخبار اليوم لا تخلو من القصص والمقالات الادبية ، ودار روز اليوسف أشبه بجامعة اهلية تنبت فى حقلها الادبى ازهار جميلة ، وصحيفة الاهرام معنية فيما اعلم بدرس تخصيص صفحة منها للادب والنقد وعسى أن تفرغ من هذا الدرس قريبا .

ومع ذلك لا تنقطع الشكوى من ان الادب مهيض الجناح فى بلدنا ، وان سوقه فوضى .

فما تعليل هذه الظاهرة ؟

امامى مسالك عديدة اريد أن أشقها بصبر معك عسى أن نهتدى الى العلة الصحيحة ، اولها مسلك نبحث فيه عن وجه الحق عند الذى يزعم أن الناس لا تقرأ ، وعند من يؤكد أنهم يقرأون، واعترف اننى كلما قابلت ندابة فى مأتم الادب خامرنى الشك أنه مشغول باللطم عن القراءة ، واذا دللته على ما يرضيه هز كتفيه وقال « ليس هذا الذى أرغب، اريد شيئا أسمى » ورفع يده من حذاء بطنه الى كتفه الى رأسه الى ما فوقها . انه المتبرم الابدى الذى يقتصر اشتراكه فى المعركة على اثارة الغبار .

والمسلك الثانى نبحث فيه عن المستوى الثقافى لجمهور القراء ، والى أى مدى يتيح لهم تفتح ذهنهم وعلمهم باللغة تذوق الادب ، وهل الوصول اليهم يكون على جسر مادى ببيع الكتاب بثمن زهيد « ستة أرغفة وكتاب بخمسة قروش » أم على جسر روحى نبنيه من ادراكنا لمطالبهم وقدرتهم ومن تحدثنا اليهم تحدث الاليف الى أليفه بلغة يفهمونها ، وقد ينتهى هذا البحث الى أن حجر الزاوية هو داخل المدرسة الابتدائيه والاعدادية ، فاذا فسد تعليم اللغة العربية فكل كلام من بعد لغو ولا امل فى اتباعات الادب مهما نبذل من جهد ..

والمسلك الثالث نبحث فيه عن النقد وهل يصدق عليه القول بأنه نقد موجه ، قد وجد الاساس السليم الذى يرتكز عليه ، وهل يشوبه فى بعض الاحيان عيب مرجعه – كما فى المسلك الثانى – انه يعبر الينا على جسر مادى ، بأن ينقل الينا افكارا مستوردة .. واذا كان هذا صحيحا فهل هناك جسر روحى يوصل، على الاخر والنفع ، ما بين الادب والنقد ، سألح فى هذا البحث على الصلات الروحية الحاحا شديدا .

والمسلك الرابع نبحث فيه عن الاجابة على سؤال : هل هناك مجال محدد ينبغى أن تقتصر عليه مشاركة الحكومة فى حركة النشر ، لسد فراغ أو معالجة فساد ، أم يدها طليقة ؟ وهل هناك ضرورة تدعو الى تنسيق البرامج بين مختلف ادارات الحكومة ، وبينها وبين الناشرين ، وبين الناشرين بعضهم وبعض فلسنا من الغنى بحيث يحتمل

سوقنا ترف ثلاث ترجمات لقصة زيفاجو وترجمتين لقصة « هل تحبين براهمز » .

تلك هى المسالك التى أحب أن اشقها معك ، ولكنى سأقدم لها - بعد اذنك - بابداء رأى فى مشكلة مجلاتنا الادبية فلعله يلقى ضوءا على المسالك كلها ..

اعود هنا الى الكلام عن ثنائية التعليم فى مصر وهى التى بدأت فى عهد محمد على ، والغريب انك تلحظ لو دققت ان طلبة البعثات التى اوفدها محمد على لاوربا حينما عادوا لمصر لم يسرعوا الى التنكر لشرقيتهم كما فعل خلفاؤهم من بعد ، بل حاولوا بعث تيار موحد يجمع بين ثقافة الشرق والغرب ، واشتغلوا كالمحمومين بترجمة أو بتاليف كثير من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، ولعلهم احسوا بخطر الثنائية القادم ، ولكن الهوة بين المعسكرين الشرقى والغربى عندنا تأكدت واتسعت فى مطلع هذا القرن بفضل تخرج الافواج الاولى من المدارس التى تعلم اللغات الاجنبية وازداد بذلك عدد المتذوقين لفلسفة أوربا وآدابها ، وكادوا يعلنون انهم فى غنى بها عن كل شىء اخر ، او على الاقل لا بد عندهم من أن يقترب الادب العربى الى الادب الاوربى .

وكان رد الفعل الطبيعى المنتظر ان معسكر الشرقيين - ولم يكن مهيأ لدخول معركة سلاحها جديد عليه - أقام الحصون من حوله ليعيش كالاسير فى حياطة الدين واللغة المقدسة ، وانقسم الى غلاة أعلنوا مثل غلاة خصومهم انهم قانعون بما لديهم، والى معتدلين قالوا ان الحكمة تقضى بأن نعنى أولا باحياء تراثنا القديم ونفض الغبار عنه ليكون الزواج المرتقب بين كفئين ، وبدأت حركة مباركة لنشر اثارنا القديمة فى طبعات جديدة محققة .

وقد طغت هذه الثنائية على الصحافة والمجلات الادبية ، ففى عهد الجريدة كان لطفى السيد المطربش يتزعم تيار الغرب وكان المؤيد بقيادة على يوسف المعمم لا يفلت من يديه زمام الثقافة الشرقية فذاع اسمه - دون الجريدة - فى بلاد المسلمين جميعها ، مع ان الصحيفتين تتشابهان فى نغمة الاعتدال فى مخاطبة المحتل، فلا يصح الزعم أن انتشار المؤيد دون الجريدة مرجعه الى اسباب وطنية. وانما قد يقال هنا أن مساندة المؤيد للخديو صاحب السلطة الشرعية نفى عنه وصفه باللون الاصفر الذى يخيف حكام البلاد الشرقية .

وامتد تيار « الجريدة » الى صحيفة السياسة اليومية والاسبوعية فيما بعد ، حين خصصت للدكتور طه حسين صفحات بأكملها ليلخص لنا فيها روائع المسرح الاوربى ولم يظهر مثل هذا التيار فى الصحف الاخرى .

وطغت الثنائية بصورة أوضح على المجلات الادبية ، ففى جانب يقف المقتطف ليتحدث عن دارون والعلوم الحديثة ، وتعقبه مجلة « المستقبل » التى أصدرها سلامة موسى . وفى جانب اخر تقف مجلات أخرى تعنى بالثقافة الشرقية وحدها وفى مقدمتها مجلة «المنار» ثم فى العهد الحديث كانت مجلة «الكاتب المصرى » وتحريرها موكول الى الدكتور طه حسين يساعده صديقى الاديب الجليل حسن محمود ، ترفع لواء الغرب يخصص لها اندريه مالرو بعض مقالاته لتنشر بها لاول مرة ، وفى ذيل كل عدد استعراض وتلخيص لكافة المجلات الادبية الاوربية ، وشجعت الترجمة من الغرب ، وكانت مجلة الكتاب التى

تصدرها دار المعارف ، وتحريرها موكول الى الاستاذ الشاعر صديقي عـــادل الغضبان تقدم لقرائها أبحاثا قيمة عـــن تراثنا الادبي ، وتعنى أول كل شيء بنقد الكتب التي أعيد طبعها بعد تحقيـــق او الكتب الحديثة التي تتحدث عن هذا الادب القديم أو تدور حوله .

وظهرت هذه الثنائية أيضا في مجلـة الرسالة للاستاذ احمد حســـن الزيات أطال الله في عمـــره ، فهي وان داعبت الادب الغربي أحيانا فان طابعها الغالب هو العناية بالثقافة الشرقية ، وبجانبها مجلة الثقافة وتحريرها كان موكولا الى المرحوم الاستاذ الكبير احمد امين تتنح صدرها لمقالات أساتذة الجامعة الذيـــن درسوا في الغرب وتأثروا بمنهجه .

فكانت كل مجلة تعوم على تيـــــار يسندها ويجمع حولها الانصار وتزيد من عددهم كلما ذاعت عقيدتها لدى مـــن يتقبلها ، وكان همها – وهي تعوم على هذا التيار – ان تدفعه هي أيضا الى الامام فكان هذا التفاعل بين المجلة والتيار هو سبب بقائها .

ثم حدث فجاة ان غاض معين التيارين فوقعت المجلات على القاع وتعذر بعد ذلك تعويمها ما لم يتدفق لها التيار مـــن جديد .

ففي المعسكر الشرقي تلقى انصـــاره ضربات شديدة ذات اليمين وذات اليسار . ذات اليمين حين هوجم الشعر العربي القديم اولا هجوما شديدا ، واثيـــرت الشكوك حول اصالته ، ثم امتد الهجوم الى الادب العربي كله وانكر الاســـتاذ عادل كامل مثلا في مقدمته البديعة لقصة « مليم الاكبر » وجود شيء اسمه الادب العربي، وانكر على اللغة العربيـــة ، البدائية في نظره ، قدرتها على التعبيـــر الفني .

ولم تستطع حركة احياء التـــــراث القديم أن تصد هذه الهجمات لان نشر هذا التراث خرج مضطربا ، لا يصـــدر كتاب حتى يثور جدل كبير حول الاخطاء العديدة التي تضمنها ، ثم ان هذا النشر لم يتبع منهجا سليما ، فلا شـــك ان اصدار موسوعة من عيـــــون الادب في ثلاثين جزءا مثلا يعد عملا جليلا – وهل يمتد عمر القارىء لشراء الاجزاء كلها ؟ ولمن مثل هذا الكتاب يصـــــدر لمن ؟ للمتخصصين .. وكم عددهم ؟ الم يكن الاولى اصدار مثل هذه الروائع بعـــد تنقيتها من لغو كثير نقف امامه أحيانا في أشد الحيرة والدهشة أن جرى به قلم علمائنا الاجـــلاء ، وليس في اعادة بعثه خير بل قد يكـون فيه ضرر ، فلـو صدرت مثل هذه الموسوعات الجليلة في حجم معقول وصورة مهذبة لكان نفوذها الى عامة القراء أيسر وانفع .

وتلقى المعسكر الشرقي هجمات ذات اليسار حينما تضعضع تعليـــم اللغـة العربية في المدارس ، وخرج طلبتها وهم عاجزون عن فهم أسرار لغتهم أو تتبع اثارها البافية ، واصبحنا نرى في أيدي هؤلاء التلاميذ كتبا تسمى « النحـــــو المبسط » أو « تيسير النحو » وهكذا ولا أعلم ان لغة تعلم بلا مشقة .

فلما نضب معين التيار الشرقي غرقت مجلاته .

وتعرض المعسكر الغربي ايضا لنكبة مماثلة حينما تضعضع كذلك تعليـــم اللغات الاجنبية في المدارس وخرج طلبتها لا يحسنون كتابة سطرين بلغة سليمة ولا قراءة نص في الادب الرفيع لفهمـــه وتذوقه .

ثم لعبت السياسة دورها ، وتخلف شعور بأن الغرب يناصبنا العداء ، ثم اذا به يغدر بنا ويهاجم الوطن بخسة ولؤم .

فتخلخلت الصلات الثقافية بيننا وبينه حينا ما ، فلما غاض معين التيار الغربى غرقت مجلاته .

اذن فقد المثقفون فيما يبدو ثقتهم بالادب العربى وقدرته على التعبير عن مطالب الحياة الحديثة ولم يسعفنا المجمع اللغوى بعد بالقاموس المنتظر الذى يلزم العامية حدها ونلجأ اليه عند الترجمة او التعبير عن المطالب التى سبق ذكرها — واذن تخلخلت الصلة المباشرة بين المثقفين والادب الغربى كما بينت . هذا هو سر مشكلة مجلاتنا الادبية .

فمن العبث بحث احياء مجلاتنا الادبية الا اذا سبقته ظروف تعين على تحريك هذين التيارين من جديد ، وانى أرتعد كلما فكرت فى مسئولية وزارة التربية والتعليم فى رفع مستوى علم طلبتنا باللغات ، ولو ظهرت طوالع التيارين من جديد فمن الخير ان يستمر فترة أخرى تخصص مجلات للشرق ومجلات للغرب الى أن نصل قريبا الى الزواج بينهما وذلك لكى تعوم كل مجلة على تيار يسندها وتخدمه بتفويته وتجميع الانصار حولها ، وأتمنى أيضا أن تصدر مجلة لا تنشر الاالمترجمات ، ومجلة تكرس كل صفحاتها لدراسات مصرية فى التاريخ والاثار والفنون والاداب .

اما اليوم فحين أرى مجلاتنا لا لون لها ، لانها لا تستند الى تيار محدد ، وأراها تخبط يمينا ويسارا ، أضع يدى على قلبى واتمنى لها طول البقاء .

* * *

قرأت اخيرا ان مصلحة الاستعلامات هى التى ستتولى نشر اعلانات الحكومة فى الصحف والمجلات وانى اتوسل اليها ان تولى مجلاتنا الادبية قسطا من رعايتها فلعل من بعض اسباب تدهورها هو عجزها عن الحصول على الاعلانات ، ولا أدرى كيف تنكص دور النشر عن مساندتها باعلانات كافية ، هذا تقصير يعيب بل غفلة تسىء الى هذه الدور ذاتها .

يحيى حقى

* * *